المبشرون الجدد

16-4-2004

olatiff@link.net

الأنبياء الجدد، بلير وبوش لا يقدمان نهجا جديدا للتدخل في شئون الدول، وإنما ببساطة يسعيان للحصول على غطاء قانوني للدول القوية عسكريا لتحقيق مصالحها بدون أي التزامات أخلاقية أو قانونية، أي يهيئون الظروف لتكرار السيناريو العراقي أينما شاءوا وكيفما شاءوا بل ومن خلال عملية يباركها المجتمع الدولي ومؤسساته. ولن يكون الهدف بالقطع تقوية المجتمع الدولي، وإنما العودة لمبدأ أن القوة هي الحق, فما أشبه الليلة بالبارحة.

بقلم أميمة عبداللطيف

"سنغير العالم"، بهذه الكلمات ابتدأ الرئيس الأمريكي جورج بوش المؤتمر الصحفي الذي عقده الأسبوع الفائت, ثم أعقبها بلهجة تبشيرية يقر ما هو أشبه بالحقيقة الكونية: "إن الحرية هي هبة الله لكل رجل وامرأة في العالم وباعتبارنا أعظم قوة علي وجه الأرض, فعلينا الالتزام بنشر هذه الحرية". لم يستطرد بوش كثيرا حول سبل نشر تلك الحرية في العالم, وربما بدا الأمر من قبيل المصادفة البحتة أن أولى مهام "تغيير العالم" ستبدأ مع الشرق الأوسط حيث منح زائر واشنطن المهم رئيس الوزراء الإسرائيلي "خطاب ضمانات"، يلغي بمقتضاه حق العودة ويشرع المستوطنات وينسف حدود 1967، وبالتالي يعيد تشكيل خريطة الصراع العربي الإسرائيلي ضاربا عرض الحائط باتفاقيات جميع الأطراف المتصارعة التي اصطلح عليها بأنها ثوابت متفق عليها، وعلى وجه التحديد ضرورة أن يكون أي اتفاق هو ثمرة المفاوضات بين الطرفين المتنازعين.

ومن المهم بمكان التعرف على ماهية وآليات الرؤية الغربية عموما والأمريكية على وجه الخصوص والتي من خلالها سيتم إحداث التغيير إذا كان الشرق الأوسط هو مفتاح هذا التغيير. هذه الرؤية تحدث عنها بشكل أكثر تفصيلا رئيس الوزراء البريطاني توني بلير شريك بوش في نضاله السياسي والديني ضد قوى الشر. قبل يومين من خطاب بوش, ألقى بلير خطابا يكاد يحمل اللهجة التبشيرية نفسها وتحدث عن آلية تغيير العالم وذلك من خلال تفعيل نظام عالمي جديد تكون العناوين الكبرى فيه هي إعادة النظر في ميثاق الأمم المتحدة من أجل تقنين مبدأ التدخل في شئون الدول، بحيث يمكن تكرار السيناريو العراقي بدون الحاجة لتقديم أية مبررات أخلاقية أو قانونية تجيز التدخل. يقول بلير في معرض خطابه "نحن بالتأكيد علينا مسئولية التصرف حينما يقع شعب ما تحت إمرة نظام مثل نظام صدام", وأضاف بأن التدخل يظل مشروعا "لمنع الإرهابيين الإسلاميين من التحالف مع نظام سلطوي يحوز أسلحة الدمار الشامل ويوحدوا أهدافهم لمحاربة

الغرب".
ليست تلك المرة الأولى التي يتحدث فيها بلير عن ضرورة تعزيز مبدأ التدخل في شئون الدول، فقد سبق وأن أشارت إلى هذا جريدة الديلى تلجراف البريطانية في يوليو الماضي في مقال بعنوان "بلير سوف يساند سياسة الغزو المسلح"، وذكر المراسل السياسي للتلجراف أندرو سبارو بأنه في مؤتمر عقد في لندن في منتصف شهر يوليو وشارك فيه قادة أوربيون ذوو توجهات يسارية بالإضافة إلى رؤساء وزراء كندا ونيوزيلندا وجنوب إفريقية، وزعت وثيقة دعا بلير إلى تبنيها وتشتمل على اقتراحات تبرر التدخل العسكري ضد الدول الهشة أو الفاشلة. ووفقا للبيان الذي تم تسريبه إلي الصحافة البريطانية آنذاك، فإنه لابد أن يكون للمجتمع الدولي "الحق في التدخل في الشئون الداخلية للدول الفاشلة". وتشير إحدى فقرات الوثيقة إلى أنه "حيث يعاني سكان دولة ما من مشاكل خطيرة نتيجة -لاحظ ميوعة الشروط التي تستدعي التدخل الخارجي هنا- حرب أهلية أو قمع سياسي أو ضعف الدولة، وتكون الدولة موضع الإهتمام غير مستعدة أو غير قادرة على توقيف هذا الأذى، فإن مبدأ التدخل سيلقي بالمسئولية على المجتمع الدولي للحماية"، وفي كتاب صدر حديثا عن الحرب علي العراق يقتبس المؤلف عن بلير قوله: "إن الذين ينتقدون الحرب علي العراق يتساءلون لماذا لا نتخلص من موجابي ومن البورميين وأنا أقول: نعم لنتخلص منهمم كلهم وأنا لا أفعل ذلك لأني لا أستطيع، ولكن إذا كان بإستطاعتك فعل ذلك فعليك بالتخلص منهم".
وحقيقة الأمر إن أحد الأشخاص الذين مارسوا نفوذا فكريا علي بلير لتأصيل رؤية جديدة لإعادة صياغة العلاقات الدولية بما يتيح لظهور فكر جديد يسمح بفكرة التدخل بغرض إنساني، هو الديبلوماسي البريطاني روبرت كوبر الذي كان أحد مستشاري بلير ويعمل حاليا بالمفوضية الأوربية ويرجع له الفضل في تأصيل نظرية التدخل بغرض إنساني وهو الأمر الذي من شأنه أن يفرض قيودا على سيادة الدولة. وقد أوضح رؤيته تلك في مقال نشر في جريدة الأوبزرفر في العام 2002 بعنوان "دولة ما بعد الحداثة: إعادة تشكيل العالم: التأثيرات بعيدة المدى لأحداث الحادي عشر من سبتمبر".
يقدم كوبر في المقال طرحا جديدا حينما يدعو، وللمرة الأولى، الدول الغربية التي أسماها دول ما بعد الحداثة إلى العودة للنهج الاستعماري للتعاطي مع ما أسماه "العالم ما قبل الحداثي" أو العالم البدائي التي هي في نظر كوبر دول "من الضعف بمكان" وبالتالي تشكل خطرا علي المجتمع الدولي, ولذا يرى بأن "أكثر الطرق منطقية في التعامل مع الفوضى والأكثر استخداما في الماضي هي الاستعمار، واليوم لا توجد قوى استعمارية رغم أن الفرص بل وربما الحاجة للاستعمار أصبحت كبيرة بمثل ما كان عليه الأمر في القرن التاسع عشر. إن كل الظروف الآن مواتية لتحقيق الإمبريالية ونحن بحاجة لإمبريالية من نوع جديد وهي إمبريالية تتقبل أمورا من قبيل حقوق الإنسان والقيم العالمية"، وتدخل المجتمع الدولي لن يتوقف على الوجود العسكري فحسب وإنما أيضا على قوات الشرطة والقضاء وضباط السجون والمصرفيين وغيرهم، غير أنه ربما أخطر الفقرات التي وردت في مقاله هي تلك التي تحوي طرحا عنصريا فجا حينما يطالب الدول المتقدمة الغربية بـأن لا تتورع عن استخدام أي وسيلة بغض النظر عن كونها أخلاقية أم لا للتعامل مع هذا العالم البدائي حيث يقول: "إننا بحاجة للعودة مرة أخرى

لتبني طرق أكثر حدة، أي استخدام القوة والضربات الإستباقية والخداع وأي طريقة ضرورية للتعامل مع أولئك الأفراد الذين يعيشون بعقلية القرن التاسع عشر. فعندما يتعلق الأمر بالتعامل مع بعضنا البعض، فإننا نعمل من أجل الحفاظ على القانون، ولكن حينما نعمل في الغابة فعلينا أن نستخدم قانون الغابة". الغابة إذن حسب وجهة نظر كوبر هي أي شئ لا ينتمي للغرب المسيحي المتحضر وهي وجهة نظر لا تختلف كثيرا عن استعماريي القرون الماضية.

هكذا يفكر مستشار بلير وهكذا يفكر أنبياء العالم الجدد بوش وبلير، اللذان لا يقدمان نهجا جديدا للتدخل في شئون الدول، وإنما ببساطة يسعيان للحصول على غطاء قانوني للدول القوية عسكريا لتحقيق مصالحها بدون أي التزامات أخلاقية أو قانونية، أي يهيئون الظروف لتكرار السيناريو العراقي أينما شاءوا وكيفما شاءوا بل ومن خلال عملية يباركها المجتمع الدولي ومؤسساته. ولن يكون الهدف بالقطع تقوية المجتمع الدولي، وإنما العودة لمبدأ أن القوة هي الحق, فما أشبه الليلة بالبارحة.